عرفت هؤلاء

بقلم :
انور السادات

حذرتنى ادارة الجيش والمخابرات العسكرية من اتصالى بالشيخ حسن البنا . وعلى الرغم من هذا التحذير ، صممت على قبول دعوة الشيخ البنا ، وحضور درس الثلاثاء فى مقر جماعة الاخوان المسلمين بالحلمية الجديدة .

وكنت أشعر بمن يراقبنى ، ويترصد خطواتى ، ويسجل لقاءاتى الاسبوعية مع الشيخ البنا . ولم اهتم بهذا كله . فقد كنت اريد ان أعرف الحقيقة التى انتهزت أول لقاء لى مع المرشد العام للاخوان المسلمين وسألته عنها قائلا :

لقد منعونى من الاتصال بك ياشيخ حسن . ولا اعرف السبب . ولا أعرف ماذا تفعل ، ولا ماذا تدبر غير الارشاد والوعظ الدينى ! قل لى ياشيخ حسن .. ماهى حقيقتك بالضبط ؟

قابلت عزيز المصرى.. بـ"كلمة سر" من حسن البنا!!

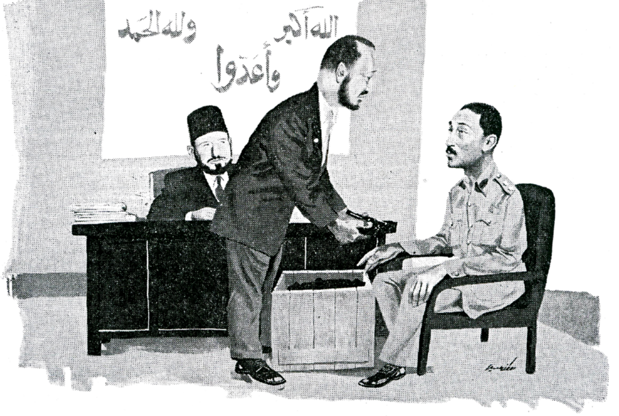

انزعجت رياسة الجيش ، وارتبكت المخابرات العسكرية ، لا لشىء الا لاننى دعوت الشيخ حسن البنا لزيارتى فى معسكر سلاح الاشارة ، والقاء خطبة دينية للجنود ، بمناسبة ليلة مولد النبى صلى الله عليه وسلم !

فبعد لحظات من وصول الشيخ حسن البنا الى المعسكر ، كان خبر وصوله قد بلغ اذان ادارة المخابرات ، التى نقلتها بالتالى الى رياسة الجيش . وعلى الفور صدرت التعليمات لضابط عظيم المنطقة بالتوجه الى معسكر سلاح الاشارة والتحقيق فى واقعة الزيارة ، ومع الذى سمح بها .

وجاء الضابط العظيم لمقابلتى ، وبعد مرور ساعة او ساعة ونصف فقط من خروج الشيخ حسن البنا من المعسكر . كان الضابط لطيفا ، وفهم على الفور ان لا علم لى بحقيقة الشيخ البنا .

وان كل ما فى الأمر هو حرص على اتاحة الفرصة للجنود لسماع درس دينى ، فى مناسبة دينية .

ولم يحاول الضابط أن يحدثنى عن الشيخ البنا . وكل ما قاله هو أنه نصحنى بعدم دعوته الى المعسكر مرة أخرى . كما طلب منى الامتناع عن مقابلته فى اى مكان!

ودفعنى هذا الغموض دفعا الى تلبية دعوة الشيخ حسن البنا ، للذهاب الى مقر جماعة الأخوان المسلمين فى الحلمية الجديدة ، لسماع درس الثلاثاء من كل أسبوع .

وكانت هذه هى أول مرة أزور فيها الأخوان فى مقرهم القديم ، وقبل انتقالهم الى المقر الجديد فى نفس منطقة الحلمية . واحسن الشيخ البنا استقبالى ، ورحب بى ، وقدمنى لمن كان يجلس معه .

وكانت المفاجاة بالنسبة لى ، والتى لم أستسغها أبدا ، هى اقدام الأخوان على تقبيل يد الشيخ البنا بعد مصافحته . وكان الشيخ يعطيهم يده ، ويتركها لهم يقبلونها بكل بساطة ولا يحاول سحبها .

لم أستسغ هذا التصرف ابدا . حقيقة اننى تعودت على تقبيل يد والدى ، منذ نشأتى وحتى أخر يوم فى حياته ، ولكن هناك فرق بين أن تقبل يد والدك ، ويد شخص أخر مهما كان احترامك وتقديرك له .

وبعد أن أدينا صلاة المغرب ، أخذنى الشيخ حسن البنا الى مكتبه الخاص . وهناك جلس يحدثنى فى موضوعات شتى ، الى أن بدأ حديثه عن القوات المسلحة ، وسألنى عن زملائى من الضباط الذين يفكرون مثلى فى مشاكل بلادهم ، وفى ازماتها ، وفى كيفية ايجاد الحلول لها .

اعترف بأننى أحببت الرجل . واعجبت به كثيرا . واعجبت اكثر بأسلوبه فى الحوار . فهو لا يفرض رايه ابدا على المستمع له . واذا أحس انك لا توافقه على وجهة نظر معينة ، فتجده لا يصر على اقناعك بها . وانما يسكت عنها وينتقل الى حديث اخر .

سألنى الشيخ حسن البنا :

— لقد أسعدنى كل ما سمعته عنك ، وعن افكارك ، وعن جرائك فى تناول القضايا الهامة . فهل هناك الكثير من امثالك فى القوات المسلحة ؟ وهل تتصل بهم ، وتتناقش معهم ؟

فقلت له :

— نعم .. فلست وحدى الذى يهتم بمشاكل بلاده . حقيقة اننا لم نتعارف جميعا ولكننى بدات التحرك بالفعل ، لترتيب هذه اللقاءات . وبالمناسبة .. لقد انزعجت رياسة الجيش بسبب الزيارة التى قمت بها لمعسكرنا . وجاء من يحذرنى من تكرار تلك الزيارة ، ونصحنى بعدم مقابلتك . وانا لا اعرف سببا لهذا كله . فهل تعرفه انت ؟

ورد الشيخ البنا بكلمات كثيرة ، حاول فيها ألا يكشف عما لا يريد الكشف عنه . واهتم بالحديث عن دعوته الدينية ، وكيف ان الاسلام دين ودنيا ، وان واجب كل مواطن مسلم ان يهتم بمشاكل بلاده ، وهداية الناس ، ومساعدتهم على الخلاص من متاعبهم .

ورايت ان اكون اكثر وضوحا معه فقلت له :

— بصراحة .. لدينا تصور — فى القوات المسلحة — لحركة الضباط الاحرار . وهذه الحركة وضعت تنظيما سريا لها . وهذا التنظيم يهدف اصلا الى القيام بثورة تحقق للشعب اماله واحلامه .

ولمعت عينا الشيخ حسن البنا ، وظهر على وجهه الاهتمام الشديد بكلامى ، فرد عليه قائلا :

— هذا عمل طيب . نشجعكم على المضى فيه . كما يسعدنا أن نضم جهودنا الى جهودكم ، ونعمل معا من أجل شعبنا ، وديننا ، وبلادنا .

وقلت بسرعة :

— ونحن ايضا نرحب بهذا .

وعاد الشيخ البنا الى أسلوبه الحذر فى الحديث ، وبدأ يسأل عن عدد الضباط الأحرار ، وعن لقاءاتنا ، وتصورنا لكيفية التحرك ، وجمع الزملاء واقناعهم بما نعد له .

وكعادتى فى ان اعمل فى وضوح ، رايت ان اضع النقاط فوق الحروف فقلت :

— اننا نضع ايدينا فى يد كل من يريد ان يشاركنا فى تحقيق هدفنا . ولكن المهم ان نوضح موقفنا فأقول لك اننا لا نعمل لحساب اى جماعة ، او اى تنظيم . نحن نتحرك من اجل مصر فقط . ونعمل لحسابها وحدها . فمن غير المعقول ان يعمل الجيش لحساب حزب من الاحزاب السياسية .

الجيش لحساب حزب من الاحزاب السياسية .

خاصة اننا لا نوافق ابدا على ما تفعله هذه الاحزاب . فمن راينا انها تعمل من اجل الوصول الى الحكم فقط ، وهذا لا يتفق ابدا مع الذين يعملون من اجل مصر .

وفهم الشيخ البنا ما اقصده بسرعة . وعلى الفور وافقنى على رأيى ، وفهم اننى أختلف معه فى كيفية العمل المشترك بين جماعته ، وبين حركة الضباط الاحرار .

وانتهت الجلسة الأولى بينى وبين الشيخ البنا فى مقر جماعة الأخوان المسلمين . ثم تكررت هذه الزيارات مرات ، ومرات ..

وبعد فترة لاحظت شيئا جديدا ، دبره الشيخ البنا ليظهر امامى كشىء عادى وبلا ترتيب مسبق . فبعد تأدية صلاة المغرب ، وانتقالنا الى غرفة مكتب المرشد العام ، كان يطرق الباب علينا ويدخل منه أحد الاخوان حاملا صندوقا يضعه امامنا ، ثم ينحنى ليصافح الشيخ البنا ، ويقبل يده ، وينتظر أوامره .

وينظر الشيخ البنا الى القادم ثم يأمره قائلا :

— افتح الصندوق يا فلان .

ثم ينظر الشيخ ناحيتى قائلا :

— انظر يا اخ انور داخل الصندوق وقل لى رايك .

فانظر ، فاجد طبنجة افحصها ، ثم اعيدها الى مكانها ، لاسمع من الشيخ البنا العديد من الأسئلة عن رايى فى نوع الطبنجة ، وفعاليتها ، ونوع الذخيرة المناسب لها ، وهل أوافق على شرائها أو اقترح عليه شراء غيرها ؟

— وكنت اجيب عن اسئلته ، واقول رايى فى السلاح ، وكان الشيخ حسن البنا ياخذ برايى بلا تردد . فاذا وصفت السلاح بالجودة ، امر بشرائه على الفور . واذا نصحت بعدم الشراء ، امر من احضره باعادته الى صاحبه ، والبحث عن اخر احدث نوعه وطرازه بنفسى .

وفهمت من هذا ان جماعة الأخوان المسلمين تشترى اسلحة ، وتخفيها ، وتنوى أن تستخدمها يوما ما . ولم أبد أى اعتراض على ذلك . وفهمت من الشيخ حسن البنا ان جماعته تستعد هى الأخرى للقيام بالثورة . وكنا نشجع أى مواطن يعمل فى نفس اتجاهنا ، وهو القيام بثورة . لم نتدخل فى أسلوبهم . ولم نكن نسمح لهم بالتدخل فى أسلوبنا . فحركة الضباط الأحرار لا تعمل — كما قلت — لحساب حزب ، أو جماعة . وانما تعمل لحساب مصر فقط .

وتكررت لقاءاتى مع الشيخ حسن البنا ، واصبحت بمعدل مرة كل أسبوع تقريبا . حقيقة اننى لم أطلب منه الحضور لزيارتى فى المعسكر مرة أخرى ، بعد التحذير الذى تلقيته من الضابط العظيم المسئول عن منطقتى ، ولكننى لم انقطع عن الذهاب مساء كل يوم ثلاثاء — تقريبا — الى مقر جماعة الأخوان المسلمين ، لمقابلة الشيخ حسن البنا .

وكانت رياسة الجيش ، والمخابرات العسكرية ، على علم بتلك اللقاءات شبه المنتظمة .

وكنت أشعر بمن يراقبنى ، ويتتبع تحركاتى . وعلى الرغم من ذلك لم أخف ، ولم امتنع عن الذهاب الى الأخوان المسلمين ومجالسة مرشدهم العام .

وبدأ الشيخ البنا يعرفنى على أعوانه وزواره . وكان يقدم لى كل واحد باسمه ، وبمعلومات عنه ، وبالدور الذى يقوم به فى الجماعة .

وذات يوم ..

فوجئت بالشيخ حسن البنا يسألنى :

— ما رايك فى عزيز المصرى ؟

فقلت له :

— رجل عظيم بكل ما فى هذا الوصف من معنى . لقد اعجبت به قبل ان اراه . ورايته مرة واحدة ، عندما زار معسكرنا فى منقباد ، ولم اتمكن من الحديث معه . لقد تمنيت ان اقابله ، ومازلت انتظر تحقيق هذه الامنية .

وابتسم الشيخ حسن وقال :

— سأحقق لك هذه الأمنية . وسأجعلك تقابله ، وتقول له كل ما تريد . فما رايك ؟

ولم اكن أريد اكثر مما وعدنى به الشيخ حسن البنا . واحسست بسعادة كبيرة ، وانا استمع منه ترتيبات مقابلتى المنتظرة مع عزيز المصرى . قال لى الشيخ حسن :

— عندما تحضر الى هنا فى الأسبوع القادم ، سأخبرك بموعد ومكان اللقاء .

وبالفعل ، حدد لى الشيخ حسن مكان وزمان لقائى بعزيز المصرى ، عندما عدت فى الأسبوع التالى ، فقال لى :

— هناك عمارة ، قدام مدرسة السنية للبنات ، وانت قادم من شارع المبتديان متجها الى ميدان السيدة ، وهى عمارة قديمة وتزدحم بعيادات الأطباء . ستجد بينها عيادة باسم الدكتور ابراهيم حسن . وانت تعرفه طبعا ، فقد عرفتك عليه هنا منذ فترة . فهو وكيل الجماعة . ستذهب اليه فى العيادة ، وتقول له كلمة السر ، بعد أن تدفع قيمة الكشف — الفيزيتة — وسيتولى هو ترتيب مقابلتك مع عزيز المصرى .

واتفقنا على اليوم ، والساعة ، لذهابى الى عيادة الدكتور ابراهيم حسن . وفى طريقى الى هناك تذكرت مقابلتى الأولى مع الدكتور ابراهيم . ومع باقى المعاونين للمرشد العام ، ومن بينهم — طبعا — وكيل الجماعة الدكتور ابراهيم حسن . فقد لاحظت ولاحظ معى باقى زوار المرشد العام انه يظهر اهتماما كبيرا بحضورى . كما كان يحرص على ان يقدمنى الى كبار مساعديه ، مثل الدكتور ابراهيم ، وعبد الحكيم عابدين — قريبه وسكرتير عام الجماعة — ووكيلها الثانى الذى لا اتذكر اسمه اليوم ، وان كنت اتذكر انه كان يعمل مدرسا الزاميا . وآخرين غيرهم . وكانوا جميعا فى غاية الاستغراب ، من اهتمام مرشدهم العام بهذا الشاب الصغير الذى كان عمره فى ذلك الوقت لا يزيد على الواحد والعشرين من عمره ! ولم يكن احد منهم يعرف عنى اكثر من اسمى فقط . او هكذا تصورت . وبالذات نتيجة لعلامات الاستفهام العريضة التى كانت تبدو واضحة على وجوههم فى كل مرة اظهر فيها فى مكتب المرشد العام ، واجد منه الترحيب الشديد ، والمعتاد !

ووصلت الى العمارة القديمة التى حددها لى المرشد العام .. وصعدت السلم حتى العيادة . ودخلت ، ودفعت قيمة الكشف الطبى ، وانتظرت دورى لأدخل الى غرفة الكشف . وهناك وجدت الدكتور ابراهيم حسن ، الذى انتظر ان يسمع منى كلمة السر التى حددها لى الشيخ حسن البنا . وعلى الفور قام الدكتور ابراهيم ، وفتح بابا داخليا قادنا الى غرفة اخرى يجلس فيها الفريق عزيز المصرى .

وكانت هذه المقابلة بمثابة منحنى طريق فى حياتى . بل لا اغالى اذا قلت ان حياتى انقسمت الى مرحلتين : مرحلة ما قبل لقائى بعزيز المصرى ، ومرحلة ما بعد لقائى به . فى المرحلة الأولى كنت ابحث عن طريقى . كنت ابحث عن البداية التى انطلق منها نحو هدفى . كانت اعماقى تمتلىء بالحماس ، والثورة ، والغضب ، والانفعال ، ولم اكن اعرف كيف احول هذا كله الى طاقة تدفعنى الى الأمام . فكل ما كان حولى كان يقودنى الى الياس ، والمزيد من الياس . وبالذات خلال الفترة التى اقمت فيها فى معسكر منفى العباد الذى كانوا يطلقون عليه اسم منقباد . وعندما نقلت الى سلاح الاشارة بالقاهرة ، تصورت اننى ساجد الفرصة للانطلاق ، ولكنه كان انطلاقا بطيئا ، وغير مشجع . فكنت اتحسس طريقى ، وابحث فى هدوء ، وفى تمهل شديد ، عن العناصر الصالحة من الضباط الذين قد يشاركوننى احلامى ، وافكارى . ولم يكن سهلا العثور على هؤلاء الضباط ، على الرغم من ثقتى الكاملة فى وجودهم ، وبكثرة . فالمشكلة كانت فى كيفية العثور عليهم ، وكيفية الاتصال بهم ، وكيفية مفاتحتهم فى الامر .

وانتهت هذه المرحلة بعد مقابلتى مع عزيز المصرى فى عيادة الدكتور ابراهيم حسن . كان الرجل فى انتظارى ، بعد توصية من الشيخ حسن البنا . ووافق عزيز المصرى بتاريخه القديم والعريق — على ان يلتقى سرا بضابط شاب فى بداية عمره ، ولا يعرفه احد . واعتبرت هذا التصرف من عزيز المصرى دليلا على عظمة هذا الرجل وعلى وطنيته وعلى حبه للغير ، بلا حدود .

فلم يكن الرجل عاديا ، فى شخصه او فى تاريخه ..

لقد تخرج فى المدرسة الحربية بمدينة استانبول — تركيا — وزامل مصطفى كمال اتاتورك ، وحارب فى البلقان ، ثم انضم الى جماعة الاتحاد والترقى بهدف انقاذ الأمة العربية كلها من الاحتلال التركى . رجل هذا شأنه ، لم يكن معروفا على المستوى المصرى فحسب ، وانما عرف على المستوى العربى كله ، كرجل ينادى بتحرير الدول العربية من المحتل الأجنبى . هذا الرجل ، بكل عظمته وبكل شهرته ، لم يعترض عندما رجاه الشيخ حسن البنا ان يحقق لضابط صغير السن ، امنية فى ان يلتقى به .

ومددت له يدى مصافحا ، وشاكرا سماحته بموافقته على اضاعة وقته معى . وعلى الفور سألنى عزيز المصرى :

— لماذا طلبت مقابلتى ؟

وبدات حديثى مقدما له نفسى قائلا :

— اننى ضابط فى الجيش .. و ..

فقاطعنى قائلا :

— اعرف انك ضابط فى الجيش ، ولكن ما اريد ان اعرفه هو لماذا اردت ان تقابلنى ؟ ففهمت ان الرجل يريد ان ادخل فى الموضوع مباشرة ، وبلا مقدمات طويلة لا فائدة منها ! فقلت له :

— لقد جئت اليك طامعا فى ان ترشدنى الى الطريق الذى اسلكه انا وزملائى الضباط من اجل انقاذ بلدنا . وانت صاحب تاريخ طويل فى الكفاح ، والوطنية ، ومن المؤكد ان لديك التصور الصحيح لما يجب علينا ان نفعله .

ونظر الى عزيز المصرى نظرة طويلة ثم فاجأنى بقوله :

— والله انا خائف ان تطلع انت ايضا مثل الذين سبقوك ! فما اكثر الضباط الذين اتصلوا بى من قبل ، وطلبوا منى ارشادهم مثلك الى طريق الثورة ، ثم خرجوا من بيتى ليبلغوا رياسة الجيش والمخابرات عنى ! ولا اعرف اذا كنت انت ايضا من هؤلاء الذين حاولوا الاساءة الى ، واتضح انهم اساءوا الى انفسهم والى وطنيتهم اولا .

فدافعت عن نفسى ، وقلت له اننى فعلت كل ما فعلته من قبل من اجل ان التقى به . ومن المؤكد ان الشيخ حسن البنا اخبره عن حقيقتى . فلو كان لدى الشيخ البنا اى شك فى شخصى ، لما جاء لمقابلتى فى المعسكر ، ثم دعانى لزيارته كل يوم ثلاثاء ، ثم عرض على ان يرتب لى مقابلة مع الفريق عزيز المصرى فى عيادة وكيل جماعة الاخوان المسلمين ! وقلت لعزيز المصرى :

— اننى جئت طالبا النصيحة ، والارشاد ، وفى نفس الوقت جئت لاعرض عليك — باسم زملائى وباسمى — ان تتولى رياسة تنظيمنا السرى ، وتوجهنا الى الطريق الذى تحدده لنا . فسألنى عزيز المصرى :

— ومن انتم ؟

قلت :

— ضباط جيش يمثلون جميع الاسلحة ، اجتمعوا ، واتفقوا على العمل بهدف انقاذ مصر من المحتل الانجليزى ، ومن حكم الملك والاحزاب الفاسدة .

وعندما نطقت بكلمة (الملك) ، علق عزيز المصرى عليها قائلا :

— الولد ده مش تمام ابدا .

ثم اعاد الحديث عن تجربته عندما سافر الى لندن يكون مشرفا على ولى العهد فاروق مع احمد باشا حسنين . وكيف انه كان صارما مع فاروق ، فى حين ان احمد حسنين كان متساهلا معه ، طمعا فى كسب صداقته . مما اغضب فاروق وارسل الى والده الملك فؤاد يشكو من قسوة عزيز المصرى عليه . فاضطر فؤاد الى ان يسحب عزيز المصرى ويعيده الى القاهرة ، فأطلق فاروق العنان لنفسه ، فى اللهو ، واللعب ، واهمال دروسه .

وبعد ان انتهى عزيز المصرى من قصته مع فاروق ، وجدته يعود الى حديثنا الاصلى ويقول لى :

— حقيقة يا انور انا لا املك نصيحة اقدمها لكم . وكل ما استطيع ان اقوله هو ان اطالبكم بتثقيف انفسكم عن طريق القراءة ، والاطلاع المستمر . كما انصحكم بأن تحرصوا على سرية تنظيمكم ، وتضعوا الضمانات الكافية لمنع سقوطكم . وهذا يتطلب سلسلة تنظيمية سليمة ، وتعمل كل خلية على حدة . بحيث اذا انكشفت خلية من الخلايا ، فلا ينكشف امر التنظيم كله فتسقطوا جميعا . ان التجربة علمتنى ان اكون حريصا كل الحرص . فما اكثر اصحاب النفوس الضعيفة ، وما اقوى الاغراءات التى يتهاوى امام بريقها الضعفاء . اما عن اقتراحك بأن اتولى

امام بريقها الضعفاء . اما عن اقتراحك بأن اتولى

رياسة تنظيمكم ، فاننى اعتذر عن قبول هذا العرض ، ليس خوفا ، وانما لانه لا مكان لى داخل هذا التنظيم . فهو تنظيمكم انتم وحدكم . انتم الذين فكرتم فى تشكيله . وانتم الذين جمعتم عناصره . وانتم الذين عليكم التحرك به وفقا لمخططكم .

وسكت عزيز المصرى قليلا ثم قال :

— ان نابليون اصبح جنرالا وهو فى سن السابعة والعشرين من عمره . فكم عمرك الآن ؟

فأجبت :

— ٢١ سنة

فقال :

— اى امامك ست سنوات لتبلغ السابعة والعشرين وتصبح مثل نابليون .. مسئولا عن ثورة ، وعن شعب . اننى لا اخاطبك وحدك بهذا الكلام ، وانما اقوله لتنقله لباقى زملائك فى التنظيم . لا تتركوا اموركم لغيركم ، مهما كان الشخص . فالمسئولية — كما قلت لك — هى مسئوليتكم وحدكم .

واقتنعت بما قاله لى عزيز المصرى ..

واكدت له اننا سنعمل بنصيحته . وسنعتمد على انفسنا فقط . فالقرار قرارنا ، والفكرة فكرتنا ، ونحن وحدنا الذين سنحدد خطوات تنفيذها .

وشكرت عزيز المصرى على حسن استقباله لى ، وطمانته على ايماننا ، وثقتنا ، فى انفسنا وفى قدراتنا .

وارتاح عزيز المصرى .. لما اكدته له .. وطلب منى ان التقى به فى كل مرة اشعر فيها برغبة فى التحدث اليه .

وفعلا تكررت زياراتى لعزيز المصرى . وكان الرجل يمتلك منزلا كبيرا ، محاطا بحديقة فسيحة

الرجل يمتلك منزلا كبيرا ، محاطا بحديقة فسيحة

فى منطقة عين شمس . ولكنه لم يكن يقيم فى هذا البيت . وفضل عليه غرفة فى بنسيون صغير فى شارع الانتيخانة — بوسط القاهرة — اسمه بنسيون فينواز . وكنت التقى معه دائما فى هذا البنسيون الصغير . وكنا نتحدث طويلا فى امور شتى ، وكان يسألنى عن احوالى دون ان يتدخل فى التفاصيل .

وفى نهاية كل لقائى مع عزيز المصرى ، كنت ازداد حماسة ، واصرارا ، ورغبة فى تحقيق ما كنت وزملائى من الضباط الاحرار نحلم به ، ونتطلع اليه . كان الرجل يملأ قلبى ، بحديثه ونصائحه ، بالأمل فى ظهور الفجر الجديد .

وبدات اوسع فى دائرة اتصالاتى بالضباط .. وهذا حديث الاسبوع القادم بإذن الله .

انور السادات